

من أعلام الجزائر الإمام أحمد المقرئ (986-1041هـ) - حياته وآثاره -

إعداد العمري بلاعة
أستاذ بجامعة المسيلة

والأدب وفنونه. كما تشهد مصنفاته العديدة والمفيدة على غزارة علمه، وعمق فهمه، وتأثيره الكبير. ومما هو معلوم أن الإمام المقرئ نشأ وتعلم ببلده تلمسان، حيث قرأ على عمّه الشيخ الجليل أبي عثمان سعيد بن عثمان بن أحمد المقرئ مفتي تلمسان، حيث أسهم في تكوينه تكويناً أدبياً موسوعياً بعد أن قرأ عليه سنوات طويلة، ومن جملة ما قرأ عليه القرآن الكريم وصحيح البخاري، وروى عنه الكتب الستة - الصحيحان والسنن الأربعة - بسنده عن أبي عبد الله التنسي، عن والده محمد بن عبد الله التنسي، عن عبد الله بن مرزوق عن أبي حيان عن أبي جعفر بن الزبير عن أبي الربيع عن القاضي

إن العارفين بتاريخ الجزائر عبر تاريخها الطويل يعلمون أنها أنجبت كثيراً من الرجال في شتى الميادين بلغوا كل في مجاله أعلى الرتب والمناصب. من هؤلاء الرجال الذين أنجبتهم الجزائر الإمام أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ⁽¹⁾ التلمساني⁽²⁾ مولداً ونشأة، أحد أعلام القرن العاشر والحادي عشر الهجريين لمع نجمه وعلا شأنه في المغرب والمشرق.

إن الإمام المقرئ حافظ المغرب وحنة المشرق، لم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة، فقد كان آية باهرة في شتى العلوم والفنون، حيث شهد له معاصروه بالفضل والإمامة والتفوق في الفقه وأصوله، والحديث وعلومه،

الوقت في الدرس والتحصيل العلمي بمدينة فاس، حيث كانت عاصمة للدولة الزيانية لعدة قرون قبل مجيء العثمانيين، فاشتهرت برصيدها الثقافي الكبير، لكثرة علمائها وتنوع علومها وتعدد مكاتبها ووفرة مدارسها، ثم انتقل الإمام المقرئ سنة 1010هـ إلى مراكش، حيث اتصل بأبي العباس أحمد المنصور الذهبي (ت 1012هـ) أشهر سلاطين السعديين وقمة مجدهم، الذي اشتهر بأعماله الجليلة، حيث كانت فترة حكمه من أزهى فترات التاريخ السعودي سياسيا واقتصاديا وثقافيا⁽⁴⁾.

وفي سنة 1011هـ عاد المقرئ إلى مسقط رأسه تلمسان حيث الأهل والوطن والأصحاب.

ثم بعد فترة زمنية من إقامته بتلمسان أحس المقرئ بالحاجة إلى التكوين العلمي والاستزادة من المعرفة فعاد من جديد إلى فاس، وكان ذلك سنة 1013هـ، حيث استقر بها يطلب العلم عن شيوخها ويلتقي بأكبر علمائها، فتبحر في علوم الشريعة والأدب والتاريخ، حيث انتهت إليه رئاسة علماء زمانه، وترامى صيته في الآفاق، ولقي من أولي الأمر إعزازا

عياض بأسانيده المذكورة في كتابه "الشفاء في التعريف بحق المصطفى"، كما درس عليه أيضا الأدب والفقه المالكي.

رحلته المغربية: بعد أن استوعب علوم تلمسان، ونبع في مختلف الفنون العلمية والأدبية، خاصة العربية من شعر وأدب وغيرهما، بدأ رحلته إلى فاس. ولم يذكر لنا المقرئ السبب الذي دعاه إلى الرحلة وترك بلده تلمسان الجزائرية، غير أن بعض الدراسات ترى أن الفتن التي عاشتها الجزائر في بداية العهد العثماني هي السبب في هجرة المقرئ من تلمسان إلى مدينة فاس⁽³⁾. ومهما كانت أسباب رحلته، فإن الإمام المقرئ كان من العلماء الذين يحرصون على الرحلة لما لها من وقع حسن في نفوس الناس عامة، وفي وسط المتعلمين خاصة.

وقد اتفقت المصادر على أن الإمام المقرئ غادر تلمسان إلى فاس سنة 1009هـ، للاستزادة من العلم والالتقاء بالعلماء الكبار، خاصة وهو في سن الفتوة والاكتمال البدني، مودعا الأهل والوطن والأصحاب، وكله شوق إلى طلب العلم والتبحر في فنونه.

وقد أمضى الإمام المقرئ بعض

وإكراما.

ليقدمه إلى المنصور أحمد الذهبي⁽⁸⁾.

وفي سنة 1022هـ ولي الإمامة والخطابة بجامع القرويين بعد وفاة إمامه وخطيبه الكبير الشيخ أبي عبد الله محمد الهواري، ثم تولى الإفتاء وبقي في هذا المنصب نحو ثلاثة عشر عاما⁽⁵⁾، وهي وظيفة العلماء البارزين في عهده. كما ألف الإمام المقرئ أثناء إقامته بالمغرب الأقصى كتباً جلية، وهي:

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض⁽⁶⁾، حيث كان المقرئ معجباً بآثار إعجاب بالقاضي عياض، حتى أنه قال في حقه:

سلام مثل عرف المسك طيباً

وحسنا مثل أزهار الرياض⁽⁷⁾

على لفظ الجلالة والمعالي

إمام الدين والدنيا عياض

إذا ما قيس بالعلماء طراً

غداً بحراً وأضحوا كالحياض

- الجنابذ فيمن لقيته من الجهابذ.

- روض الآس العاطرة الأنفاس في

ذكر من لقيته من علماء مراکش وفاس.

ألفه المقرئ حوالي سنة 1011-1012هـ

رحلته المشرقية: بالرغم من هذه المكانة العالية التي تبوأها الإمام المقرئ في المغرب الأقصى التي وطأت له أسباب المجد والسؤدد، فإنه قرّر أن يتركه في أواخر سنة 1027هـ. إلا أنه كعادته لم يذكر لنا السبب الذي جعله يترك المغرب ويزمّع على الرحلة إلى المشرق، وكل ما قاله هو: "ثم ارتحلت بنية الحجاز وجعلت إلى الحقيقة والمجاز"، ولكن ما أفاده الباحثون⁽⁹⁾ بشأن سبب رحلته المشرقية هو أن المغرب لم يكن في حالة استقرار سياسي، حيث النزاعات كثيرة والاضطرابات عديدة. وكما هو معلوم أن العلماء في مقدمة وقود الفتنة إذا وقعت لأن مكانتهم خصوصاً إذا كانوا في منصب الإفتاء تجعلهم هدفاً لطلب التأييد والنصرة.

وقد سجّل صديقه ومعاصره عبد الكريم الفكون سبب هجرة المقرئ من المغرب هو فساد بلاد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها حتى تداعت للخراب فارتحل المقرئ، حيث ورد: "يقال إنه عن خوف من الأمير الذي تولى إذ ذاك لكونه -أي المقرئ- فيما يقال له خلطة بالأمراء والانتماء إلى بعض دون بعض"⁽¹⁰⁾.

ولأن الإمام المقرئ كان دائماً يتمنى السفر إلى بلاد الحجاز لزيارة بيت الله الحرام، وقد كان طموحه بلا حدود، ألم يقل عن نفسه بعد هجرته إلى البلاد المشرقية:

ولي عزم كحد السيف ماض
ولكن الليالي من خصومي

ولم تكن من عزيمة الإمام المقرئ تلك الاضطرابات السياسية والفوضى السائدة في بلاد المغرب، حيث قرر الرحيل إلى بلاد المشرق الإسلامي بعزم صادق وإيمان قوي على تحقيق أمنيته، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة 1027هـ.

وقد ذكر المقرئ أن أبا الحسن علياً الخزرجي الفاسي الشهير بالشاحي لما سمع بعزمه على الارتحال عن الوطن كتب إليه بما كتبه أبو جعفر أحمد بن خاتمة المغربي إلى بعض أشياخه، وهو:

أشمس الغرب حقاً بما سمعنا
بأنك قد سئمت من الإقامة
وأنت قد عزمت على طلوع
إلى شرق سموت به علامة
لقد زلزلت منا كل قلب
بحق الله لا تقم القيامة (12)

غير أن الإمام المقرئ قد أشار إشارة خفيفة إلى سبب ارتحاله من المغرب في مقدمة النسخ بقوله: "إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلتني من بلادي، ونقلتي عن محل طارفي وتلادي بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه، لولا أن سمسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً، وطما به بحر الأهوال... وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركا المنصب والأهل والوطن والإلف" (11).

ومهما كانت أسباب رحلته من المغرب فإنه يبدو أنه كان ينوي زيارة المشرق، حيث كانت نفسه تتوق إلى رؤية البقاع المقدسة، كما أخبرنا هو في رسالة بعث بها إلى الولي الصالح أبي بكر المغربي، وهي مؤرخة بتاريخ العاشر من صفر سنة 1021هـ بقوله: "...إن العبد كان يروم اللحاق بترككم الديار المحروسة بتوفيق الله من الأغيار، فلم تساعده الأقدار، ولم يحصل من الإقامة إلا على أشجان وأكدار:

إلى الله أشكوا بالمدينة حاجة
وبالشام أخرى كيف تلتقيان.

وكان ذلك في شهر رجب من سنة 1028هـ، كما أخبرنا المقرئ في كتابه نفح الطيب، ثم سافر إلى الحجاز بحراً فأدى العمرة سنة 1028هـ ثم فريضة الحج في السنة الموالية، حيث أخذته رعشة وانبهار عند رؤية بيت الله الحرام، ثم رحل إلى بيت المقدس في شهر ربيع الأول من سنة 1029هـ، وأخذ يتردد إلى مكة والمدينة مراراً⁽¹⁵⁾، حيث أملئ فيها دروساً عديدة ومفيدة، كما أملئ الحديث النبوي بجوار مقام الرسول ﷺ، وقد ذكر الإمام المقرئ هذا الجانب في كتابه نفح الطيب قائلاً: "وحصلت لي المجاورة فيها -أي في مكة- المسرات، وأملئت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة، والله يحيل أيام العمر بالعود إليها مديدة، ووفدت على طيبة المعظمة مئماً مناهجها السديدة سبع مرار، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار، واستضأت بتلك الأنوار، وألفت بحضرته ﷺ بعض ما من به علي في ذلك الجوار، وأملئت الحديث النبوي بمراً منه عليه الصلاة والسلام ومسمع".

فقد أملئ الإمام المقرئ الحديث النبوي وصحيح البخاري كله عند الروضة الشريفة قرب قبر الرسول الأمين، ثم رجع

وقد غادر الإمام المقرئ المغرب الذي أصبح أمنه منعداً وأوضاعه متدهورة تاركاً أهله وابنته وخزانة كتبه، بعد أن قضى فيه أربعة عشر سنة، مروراً بمسقط رأسه تلمسان ثم مدينة الجزائر، حيث اتصل بعلمائها وشرع في التدريس، وخصوصاً التفسير، وتبادل مع كبير علمائها عندئذ، وهو سعيد قدورة، الألغاز والنكت والمعلومات.

وقد روى عبد الكريم الفكون ذلك بشيء من التعريض بالإمام المقرئ قائلاً: "إنه نزل دار الجزائر على فقهاء علمائها، وتصدى للتدريس بها، وقرأ بها التفسير".

ثم غادر مدينة الجزائر متوجهاً إلى تونس⁽¹³⁾، ولما وصلها اتصل بالشيخ أبي عبد الله محمد تاج العارفين بن أبي بكر العثماني التونسي إمام وخطيب جامع الزيتونة، وقبل أن يقدم عليه كتب إليه يطلب منه الإجازة، فأجابه الإمام المقرئ مجيزاً⁽¹⁴⁾ في قصيدة فاقت الأربعين بيتاً، وذلك في شهر صفر من سنة 1028هـ.

وبعد معاناة ومكابدة في البر والبحر وصل الإمام المقرئ إلى مصر -القاهرة-

فأجابه الإمام المقري قائلا:

أيُّ نظم في حسنه حار
فكري وتحلّى بدرّه صدر ذكري
طائر الصيت لابن شاهين يُنمى
منّ بروض الندى له خير ذكري
أحمد الممتطين ذروة مجد
لعوان من المعاني وبكر
حلّ مفتاح وصله باب وصل

من معاني تعريفه دون نكر
يا بديع الزمان دُم في ازدياد

بالعلا وازدياد تجنيس شكري
وبقي المقري في دمشق عدّة أسابيع
وأملى بها صحيح البخاري في الجامع
الأموي، ولم يتفق لغيره من العلماء الذين
أمّوا دمشق ما اتفق له من الخطوة والإقبال،
وجرت بينه وبين علمائها وأدبائها
مطارحات شتى، وكان أكثر أدبائها إقبالا
عليه وتعظيما له وإعجابا به الأديب الكبير
أحمد شاهين القبرصي الأصل.

ويصف لنا المحبي إقبال الدمشقيين
على الإمام المقري بقوله: "وأملى صحيح
البخاري بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة
الصبح، ولما كثر الناس بعد أيام خرج إلى

المقري إلى مصر بعد حجته الخامسة سنة
1037هـ، حيث تصدّر لتدريس صحيح
البخاري في جامع الأزهر الشريف حتى
بهر الحاضرين، ثم بعد ذلك رحل إلى
القدس في شهر رجب من العام نفسه،
وأقام فيها خمسة وعشرين يوما، وألقى
عدّة دروس بالمسجد الأقصى والصخرة،
وزار مقام إبراهيم الخليل عليه السلام،
ومزارات أخرى.

وفي منتصف شهر شعبان عزم الإمام
المقري على التوجه إلى دمشق، وقد أرسل
إليه أحد أدبائها البارزين أحمد بن شاهين
مفتاح المدرسة الجقمقية، وكتب مع
المفتاح هذه الأبيات:

كنف المقري شيخي مقرّي
وإليه من الزمان مفري
كنف مثل صدره في اتساع
وعلوم كالبحر في ضمن بحر
أيّ بدر قد أطلع الدهر منه
ملا الشرق نورها أيّ بدر
أحمد سيدي وشيخي وذخري
وسُمّي وذاك أشرف فخر
لو بغير الأقدام يسعى مشوّق
جئته زائرا على وجه شكري

واستقر بها إلى أن مات، وذلك في جمادى الآخرة من سنة 1041هـ. وقد شاءت الأقدار أن يقيم المقرئ اثني عشرة سنة من حياته بعيدا عن أهله ووطنه.

آثاره وإجازاته

عاش الإمام المقرئ في المشرق حياة حافلة بالنشاط العلمي، حيث ألف معظم كتبه هناك، ولا سيما موسوعته الأدبية والتاريخية "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب". كما صنف عددا من مؤلفاته الدينية في المدينة المنورة، مثل: "فتح المتعال في مدح النعال" وهو بحث في النعال النبوية، و"أزهار الكمامة في أخبار العمامة، ونبذة من ملابس المخصوص بالإسراء والإمامة" وهو بحث في عمامة وملابس النبي ﷺ، كما ألف كتابا في الأسماء النبوية سماه "الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين".

وألف في العقيدة كتابا قيمة منها: "إتحاف المغرم المغر في شرح السنوسية الصغرى" وهو تكميل لشرح السنوسية في علم التوحيد، و"إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة" وهو منظومة

صحن الجامع تجاه القبة المعروفة بالباعونية وحضره غالب أعيان علماء دمشق، وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد، وكان يوم ختمه حافلا جدًّا، اجتمع فيه الألوف من الناس وعلت الأصوات بالبكاء، فنُقلت حلقة الدرس إلى وسط الصحن إلى الباب الذي يوضع فيه العلم النبوي في الجمعات من رجب وشعبان ورمضان، وكانت الجلسة من طلوع الشمس إلى قرب الظهر، وأوتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه وتكلم بكلام في العقائد والحديث لم يسمع نظيره قط، وتكلم على ترجمة البخاري، وأنشد له بيتين، وأفاد أنه ليس للبخاري غيرهما، وهما:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع

فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيح قد مات قبل سقيم

ذهبت نفسه النفيسة فلتة

ثم ختم الدرس بآيات قالها حين ودّع المصطفى ﷺ، ونزل عن الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وألف⁽¹⁶⁾.

بعد ذلك عاد الإمام المقرئ إلى القاهرة

وأحمد شهاب الدين العجمي، وغيرهم من الأعلام.

كما كان للمقري نشاط علمي متميز تمثل في إجازاته العلمية التي أجاز بها طلبته وبعض علماء عصره، وقد فاقت عشرين إجازة، نذكر على سبيل المثال من درسوا على المقري وأجازهم:

- عبد الباقي الحنبلي الدمشقي (ت1071هـ) درس عليه العقائد والحديث بالأزهر الشريف.

- عبد القادر بن غصين الغزي الذي درس وقرأ عليه أرجوزته العقديّة "إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة".

- أحمد بن القاضي شهاب الدين العجمي (ت1086هـ) درس عليه المنطق والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية لابن أحمد القسطلاني المصري الشافعي (ت923هـ)، حيث جاء في نص الإجازة: "أجزت... الشيخ أحمد بن القاضي شهاب الدين العجمي... جميع ما تجوز لي وعني روايته... وأجزته المواهب اللدنية... فليرو عني ذلك وغيره...".

بدأ تأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة 1027هـ، ودرّسها في الحرمين الشريفين، وأتمها في القاهرة سنة 1036هـ، و"حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي" و"البداة والنشأة" ذكره المحبي في خلاصته وقال: كله أدب ونظم، و"عرف النشق في أخبار دمشق" و"الغث والسمين"، والرث والشمين" و"قطف المهتصر في شرح المختصر" وهو شرح على حاشية مختصر خليل في الفقه، ذكر ذلك المحبي وغيره.

ونظم رجز سماه "نيل المرام المغتبط لطالب الخمس الخالي الوسط"، وكتاب "الرحلة إلى المغرب والمشرق" ويظهر أنه ألفه في أخريات حياته.

كما كانت للإمام المقري مخاطبات ومراسلات مع أعيان عصره من فحول الأدباء والشعراء والعلماء والفقهاء والقضاة والأمراء ورجال الإفتاء، من المغرب العربي ومصر والحجاز وبلاد الشام، من هؤلاء: محمد بن يوسف الكلشنّي، وإبراهيم بن محمد الأكرمي، ومحمد بن علي الحريري، وأبو بكر الدلائي، وابنه محمد، وفتح الله بن محمد البيلوني، ومحمد بن راس العين، وسعيد قدورة، وأيوب بن أحمد الخلوتي،

التاريخ وفنون الأدب، حيث كرس حياته للعلم والمعرفة، فقد يعود له الفضل في تعريف المغاربة بما كان يجري في المشرق من حركة علمية وأدبية، وتقريب ما كان يجري في المغرب إلى المشاركة، فقد اعترف له العلماء، وخصوصا علماء الشام، بما هو أهل له من الحفظ والعلم والأدب.

- الأديب الدمشقي أحمد بن شاهين (ت1053هـ) الذي حضر دروسه العقدية بالجامع الأموي، حيث نظم له إجازة في ست وخمسين بيتا.

وأخيرا يمكن القول أن الإمام المقرئ كان من أكبر مثقفي عصره فقها وتفسيرا وحديثا، كما كانت له الشهرة الواسعة في

الهوامش

- (1) نسبة إلى مدينة مقرة تقع شرق عاصمة ولاية المسيلة بحوالي 60 كلم. وعائلة المقرئ ذات التاريخ العريق التي تعود أصولها إلى القبيلة العربية الشهيرة -قبيلة قريش-، وقد أثبت هذه النسبة المقرئ نفسه، وكذلك ابن الخطيب وابن خلدون وغيرهم.
- (2) نسبة إلى مدينة تلمسان التي ولد ونشأ وقرأ وتعلم بها المقرئ، حيث كانت عاصمة الدولة الزيانية لعدة قرون قبل مجيء العثمانيين.
- وفي التاريخ الذي ولد فيه المقرئ كان قد مرّ على دخول الأتراك العثمانيين المدينة ثلاثة عقود من الزمن، الأمر الذي أفقدها أهميتها العلمية والسياسية بسبب معاملة الأتراك لأهلها، وكذلك الحروب والفتن الداخلية التي كانت قد عرفتها الدولة الزيانية في أخريات أيامها.
- كل ذلك دفع بالكثير من العلماء بالهجرة منها والرحلة إلى بلاد أخرى. ينظر: المقرئ، رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق ص6، تحقيق د/محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر: 2004م.
- (3) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري: 2/222. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- (4) ينظر: المقرئ، نفع الطيب: 13/1.

- (5) ينظر: محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخراج: 256. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1983م.
- (6) هو القاضي أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي المولود سنة 496هـ، والمتوفى سنة 544هـ. مراكش، مناقبه عديدة ومؤلفاته كثيرة. ينظر: مخلوف، شجرة النور: 140/1-141.
- (7) هذا الكتاب شبيه بكتابه نفح الطيب حجما وفائدة.
- (8) يذكر بعض الباحثين أن هذا الكتاب عبارة عن خلاصة الرحلة التي قام بها المقرئ إثر زيارته الأولى إلى المغرب الأقصى في الفترة ما بين [1009-1010هـ]، حيث تضمن هذا الكتاب على معلومات هامة حول الحياة الفكرية والأدبية على عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، وقد ترجم فيه المقرئ لأربعة وثلاثين عالما من علماء فاس ومراكش.
- (9) يقول الأستاذ محمد حجي بشأن سبب هجرة المقرئ من المغرب: "وكان خروج المقرئ من فاس بسبب اتهامه بالميل إلى قبيلة شراكة (شراقة) في فسادها وبغيها أيام السلطان محمد الشيخ السعدي، فارتحل إلى الشرق".
- (10) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 223/2.
- (11) ينظر: المقرئ: نفح الطيب: 13/1.
- (12) ينظر: مقدمة محقق نفح الطيب للمقرئ: 6/1-7.
- (13) بعض المصادر تذكر أنه ركب البحر، وأخرى تذكر أنه سافر برا. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 225/2.
- (14) الإجازة: هي حصول إذن من الشيخ للطالب أو المريد أو للعالم آخر، في رواية الحديث الشريف أو الفقه أو غيرهما من العلوم. أو هي تأهيل يستحق بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز بها.
- (15) تذكر بعض المصادر أنه زار مكة المكرمة خمس مرات، والمدينة المنورة سبع مرات.
- (16) ينظر: المحيي، خلاصة الأثر: 305/1.